حواريّةُ الصمت

محمود نسيم

سماءٌ مبللةٌ. وأجنّةُ موتى
وصوتُ إلهٍ قديمٍ يخرفشُ في الطرقاتِ
ويمنحُني سرَّه
هذه سَكْرتي،

وهْي جمعٌ من الله والكائناتِ على سَرْوةٍ
فاتّبعتُ علاماتِ كفين مطبوعةً في الرمال
وأسريتُ حتى تراءيتَ ناراً تَداخَلَها البردُ
كيما يراك الرعاةُ
وأخفيتَ وجهكَ في ورقٍ غامضٍ
ظاهرَ النسجِ كان

وكنتَ قد اخترت واحدةً من خلاياكَ
حتى نصبَّ الغواياتِ في دمِها
واتّركتَ على مقعدٍ صفحةً من تواريخَ صابئةٍ
واصطحبتَ المساء الأخير إلى البحر
أعطيتَ وقتاً لصوتٍ تجرّد عن جسمه كي يُحبكَ
وانسبت لتحدو القوافل في رحلة الصيف

أوقدت نار المجوس ببطحاءِ مكةَ،
مُبتدئاً ـ يا ابن الفوضى السلالاتِ ـ إغواءك الغجريَّ
مُتَّشحاً بجلود الجيادِ
ومبتعداً في ارتقاصِ زنيمْ

فكيف تخلَّفتَ عن ثورة الزنج
واقتتَّ ريحَ الصحارى وزنبقَها
والتقيت على ريشةٍ من جناحِ أبا ذَرْ
فرافقتما الخِضْرَ في رحلةٍ هِيَ بين الشهادةِ والغيبِ
تسعون في الأرض مؤتلفين ومغتربين

سنجتازُ هذا الحجازَ إلى أن نُحلَّ من الوعدِ يا صاحبي
وستنشقُّ فينا البحارُ لندخل تيه الجزيرة
لا نستديرُ ولا نبلغُ المنتهى
فرحيْن بما أُوتيَ القلبُ من صبأٍ ومواجيدَ
تلك مساحتُنا،
سوف يجيئُك زوجانِ من كلِّ جنسٍ

فذكِّرْهُما ببهاء الهبوط على الأرض ـ حيث المباحات
واللهُ غير عليمْ

أكان اختيارك حين تذكرتَ أمك
حمَّالةَ الحزن والحطب الجاف
أم كان يوم انتويت الصلاة على الرُضَّع الميتين
نظرنا معاً، وانثنينا إلى عرصات الديار
رأينا مدائِنَ من حلزون
وبحارةً ينقشون الوشومَ على الساعدين
وقفزةَ زانٍ من السورِ
أبخرةً وقراباناً في معبدٍ وثنيّ
ورسماً لرأسٍ تدحرج من درجٍ واستقرَّ بكفِّ أبيه

وجمعاً من الغرباء يبيعون للمارةِ المسرعين
تماثيلَ لاتٍ وعُزَّى
وسقطَ الجنادبِ عبر التخومْ
وكان نسيجُ العناكبِ يبحثُ عن شكل

فهل تعرفُ الآن أني تشبّهتُ بالأولين
وأحرمتُ ثم سعيتُ، وطوّفتُ بالبيت سبعاً
وصلّيت حتى تفجّر بين ذراعيَّ ماءٌ
فيمّمتُ صوب الصفا، وتصايحتُ زَمْ - زَمْ

وأدنيتُ خطوي من الباب
«يفتحُ فايز أبًا»
- ألستَ الشيوعيَّ ذا الشامة البدويةِ فوق الجبين
وأنت الذي يستبيحُ اليقين بأخيلة الوثنيين
فادخلْ، وحطَّ رحالك واقرأ كتابك فالدار آمنةٌ

- والرفاق؟
● أتوا
- والنياق؟
● ...
- سأحتاج كأس نبيذ
وأغنيةً من هديل الذبيحةِ في صوت فيروزَ
تدفعني في أجيجِ التراسلِ بين الغوايات والغيم
ثرثرةً ما عن الثورة الطبقيةِ والانفتاحَ
وفوضى المناهجِ والاصطلاحات، تحديثِ نصِّ القصيدة
حكمِ الملوكِ الوراثيِّ، شيئيةِ العالم الخارجيّ

وأحتاجُ أكثر للصمتِ،
والموتِ في أيِّ أرضٍ، ومحوِ الحواسِ الشهود

أضاف الفجاءةَ للمشهدِ العاطفيِّ
وهسَّ إلى الحاضرين:
«نسيمُ استنام لحسِّ اغتراب»

- لماذا تُغيِّرُ مجرى الكلام؟
● لأني سليلُ بلال

تلقيتُ وحياً فرددتُ أني ارتددتُ
وأذّنتُ في الناس حتى يكونوا العصاةَ
وأحللتُ شيئاً من الأبدية والإثم داخل أنسجتي
ونذرتُ الخروجْ
- فأيُّ العطايا سيمنحُنا الربُّ؟
● أن يتجسَّدَ، والغيبُ؟
- يأتي إليَّ بأمسي،
ويُوحي لجسمي بميقاتِ طائرهِ
واتصالِ أجنّتِهِ في المياه الرؤومْ
دخانٌ أم الجبلُ اندكَّ حيث تجلّيتَ يا ذا الهزيمْ

فسوِّ العباءةَ والغُتْرةَ القصبيةَ
وانثرْ على الأوجه الشبحية لقطَ الحصى والغبارَ
سنبدأ هجرتنا، هذه ناقتي ارتحلت
والسماءُ تباغتُنا بملائكةٍ ومُصلينَ
فاخرجْ لهم ما استطعت
فإنَّا على العهد ما آمنوا، يا أبانا الذي في الجحيمْ

زنيميْن جئنا، ومعتمريْن
نزودُ الأبابيلَ عن خيلِ أبرهةَ الحبشيّ
ونصحبُ جبريل - والروحُ فيه - وقت هبوطِ الرساله
نخطفُ برق البراق
ونشهدُ شكلَ ابتعاث العظامِ من القبر وهْي رميمْ

- «لماذا استراح على العرش،
واستبدل الكلمات بطوفانه وعواصفه»
● موقفٌ عدميٌّ
- وهذا حطام سفينته في العراء
ونوحٌ ينوحُ على تاركيه
فحطَّ المكان المهشَّم بين ثنايا المرايا

وضخَّ الكلام
فلا قبض ريح ولا باطل
إنما تلف ورماد احتراق

سنجترُّ طيلة ليلتنا،
فاسقني عصرةً خضخضتْ فيَّ مائي
سنشربُ يا صاحبي نخب خيبتنا
فاستعرْ، واجلُ عني جحيمي
سنشربُ يا صاحبي
وسنفترقُ الآن حتى نرى ما وُعدنا بهِ،
وسألقاك في الأشهر المستباحة
تأتي إلى الجرح من وطنٍ ونشيدٍ صباحيّ
وتدخلُ طوق الحمامة مُشتبكاً في البيوت

فلم يبق غيرُ المدينةِ ساكنةً، تستجيشُ
وريحٍ تزمزمُ في هينمات
وصوتٍ رجيمْ

وهذا هدوءُ انسحاقْ

خرجتُ مع الصبح،
كانت شوارعُ جِدَّةَ شمعيةً
ورخامُ البنايات يُعطي البياضَ مساحته في التخيّل
أعددتُ يومي،
وتلك هي الكلماتُ التي اخترتُ
كيما أحلّ الوثاقْ

- - -

سماءٌ مبللةٌ، وأجنَّةُ موتى
وبدوٌ يمرّون من ورقٍ وتواريخَ رمليةٍ
بينما، يتراءى بصحرائه ورؤاهُ
إلهٌ قديمْ.

القاهرة